

المقصد

درس على كتاب الدارس في المدارس (١)

أيها السادة :

ان تاريخ كل أمة سواء كان مجيداً او غير مجيد قد لا يخلو مستقبله من ارتباط بماضيه
لا من حيث التشابه بين طرفيه بل من حيث النتائج التي تعترب عليها نهضة الامم احيانا
وتغير مجرى الحياة الاجتماعية بان تسرع بخطا الشعوب الى مرافق الصعود

ومعناه انه اذا كان ماضي الامة عظيماً محترماً في التاريخ نحرس على ان يكون اعظم احتراماً
في حاضرها او على ان تسترد ذلك الاحترام اذا فقدت شيئاً منه . واذا كان ماضيها
سبباً غير محترم في التاريخ تدأب على التخلص منه . وتطلب لنفسها حاضراً أسعد منه .
فالنتيجة واحدة في الحالين ولكن لمن ؟ ومن يحصل على مثل هذه النتيجة من الامم ؟

تحصل عليه أمة تعلم ان لها تاريخاً تدرسه وماضياً تبحث فيه وترجع اليه لاسيما اذا
كان تاريخاً مجيداً له آثار معروفة في الوجود واثراً محقق في الاجتماع . والامة كالفردي
تخورة بالماضي الجليل اذا تمثل لها قفح فيها من روحه فملاًها نشاطاً ودفعها الى الامام
اشواطاً

وان امة لا تعرف تاريخها أحربها ان يتكرها الزمان وتزدرى بها الشعوب لجهلها
بماضي التاريخ وتتكبرها الانسانية وتتكبرها السماء والارض

ان المدنية الاسلامية التي رفع منارها اسلافنا الطاهرون وغيرت شكل الارض

(١) محاضرة الفاضل رفيع بك العظم سيف متدي القونلي في دمشق يوم ١٤ شعبان

سنة ١٣٢٨

ومجرى الاجتماع كان لمدابنكم هذه حظ وفير منها لاسيما في التوفر على انشاء معاهد العلم ودور التربية والتهديب

هذا ايها السادة مدعائي لان افق ينكم خطيباً افصح صحيفه من ماضي التاريخ فبا يتعلق باسلافكم الغابرين ومدابنكم الشيوخ وفيها ذكرى للذاكرين « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين »

ان هذه الذكرى ما ترونها في هذا الكتاب الضخم المشتمل على الـ ثلاثمائة وستين صفحة وهو كتاب (المدارس في المدارس) تأليف العلامة المؤرخ محمد بن محي الدين النعماني وهو خاص بما أنشئ من معاهد العلم والمساجد ودور العجزة (التكايا) في دمشق وقد بلغ عدد ذلك مائتين وبضعاً وثمانين لو وزعت المدارس منها على السنين منذ انشاء اول مدرسة في القرن الخامس الى سنة احدى وتسعين واربعمئة الى عهد المؤلف في اواخر القرن التاسع لاصاب دمشق كل سنتين مدرسة تثنأ اودار للهجرة والمرضى تشاد هذا فضلا عما أنشئ من المدارس بعد ذلك التاريخ ولم يدركه المؤرخ المذكور وهذا فهرست الكتاب نتلو عليكم بعضاً من اسماء المدارس التي جاءت فيه ولا اطيل خوفاً من ضيق الوقت

اما تاريخ انشاء هذه المدارس بالضبط والاقواف التي حبست على الطلبة فيها والعلماء الذين نبغوا منها ودرسوا فيها كل هذا مذكور في صلب الكتاب وليس في الوقت متسع لتلاوته عليكم كما ترون من حجم الكتاب وحسبكم ان ممن درسوا في هذه المدارس وتولوا رياستها او نبغوا فيها من علماء الشريعة مثل الحافظ الذهبي صاحب التاريخ المشهور والامام ابن تيمية صاحب التأليف الكثيرة وقاضي القضاة صدر الدين الازرعي صاحب الجامع الصغير والعماد بن كثير والنووي وابن الصلاح والحافظ جمال الدين المزي واشباههم من العلماء الكبار ومن علماء الطب مثل الرؤساء ابن ابي أصيبعة صاحب تاريخ الاطباء ومهذب الدين بن الحاجب ونجم الدين البودي وموفق الدين بن المطران ومهذب الدين الدخواز وعماد الدين الديسري واغرابهم

ومن علماء العقلات والرياضيات والموسيقى مثل محمد بن ابي الحكم الباهلي وعمر الدين السويدي وابي الفضل الحارثي المهندس الذي كان باب الجارستان النوري القائم الى اليوم من عمل يده واغرابهم

وها انا اترأ لكم مثالا واحداً من ترجمة هؤلاء الرجال فاسمعوا ما قال تاريخ المدارس هذا في ترجمة افضل الدين ابن ابي الحكم نقلاً عن الصفدي
(محمد بن عبد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي) هو افضل الدين ابو المجد بن ابي الحكم من الحكماء المشهورين كان طبيباً حاذقاً وله يد طولى في الهندسة والنجوم (اي علم الفلك) وله في سائر الآلات المطربة يد عمالة وعمل اورغنا وبالع في اتقته وقرأ على والده وغيره في الطب وكان في دولة نورالدين بن الشهيد ولما عمر البيارستان والمستشفى النوري بدمشق جعل امر الطب فيه اليه الى آخر ما قال

هؤلاء الرجال الذين ذكرتهم لكم وهذا الفضل الكبير منهم وعدد كثير مثلهم من اهل الشهرة بالعلم والفضل درسوا في هذه المدارس او تخرجوا على رؤسائها ومشايخها ثم ملأوا المكتبة العربية بالمولفات النافعة في كل فن ومن راجع منكم كتاب النكواب لابن عروة الحنبلي في اكثر من مائة مجلد وتاريخ الحافظ ابن عساكر في اكثر من عشرين مجلداً وهما موجودان اليوم في المكتبة العمومية في مدرسة الملك الظاهر بدمشق وقاس عليها ما ألفه علماء تلك الزمان الافاضل وما قبلها من الكتب في علوم الشريعة والادب واللغة والتاريخ والتراجم والفلك والطب والرياضيات كالفنسة والحساب وغير ذلك من العلوم علم مقدار مال هذه المدارس ومؤسساتها من الفضل على الامة وما للتابعين فيها من الاثر العظيم في الوجود بما سهره من الليالي الطوال في التحرير والتعبير وما عانوه من التعب في وضع كتب العلم لافادة الناس حتى ملأوا بها المكاتب ونشروا العلم : وما قولكم في ان عالماً واحداً من علماء الطب وهو موفق الدين بن المطران المتوفى سنة سبع وثمانين وخمسمائة ترك في مكتبته عشرة آلاف مجلد في الطب والعلوم الحكيمة كما ذكر ذلك ابن ابي أصيبعة في ترجمة الموما اليه

ولا يظنن بعضهم ان هذه المدارس كانت مدارس دينية فقط وان اكثر علمائها وطالباتها من طلبة العلوم الشرعية وآلاتها كلا فان فيها مدارس لغبر العلوم الشرعية كالطب مثلاً ومن هذه المدارس المدرسة الدخوازية والدينيسرية واللبودية كما سترون ذلك فيما يأتي من الكلام ان شاء الله

ولقد اخبرنا التاريخ ان معاهد العلم كانت مشاعة بين طلابه من كل فن وان الطبيب او الفلكي مثلاً كان يلقي دروسه في اي مدرسة كانت من مدارس العلم له فيها وظيفة

بل في الجوامع والمساجد ايضا لانها كانت قبل ان توجد المدارس على شكلها المعهود اي قبل القرن الرابع اشبه بمدارس للعلم بل هي المدارس بعينها وما زالت كذلك معاهد للعلم والعبادة معا الى اليوم كما تطلعون
واذكر لكم مثالا واحداً على ان المدارس كانت مشاعة لطلاب كل علم ما نقله ابن ابي أصيبعة في ترجمة رفيع الدين الجيلي قال :

« وكان مقبياً في دمشق وهو فقيه في المدرسة العذراوية داخل باب النصر وله مجلس للمستغنين عليه في انواع العلوم والطب وقرأت عليه شيئاً من العلوم الحكيمية » واعلموا ايها السادة ان كثيراً من علماء الشريعة مثل الجيلي جمعوا بين العلوم الشرعية والعقلية والطب والفلك والرياضيات وكلهم من خرجي هذه المدارس بالضرورة ومن جاء ذكرهم من هؤلاء في هذا التاريخ واذكره مثلاً للباقيين احمد بن الحسين الدمشقي واليكم ماجاء من ترجمته في هذا الكتاب نقلاً عن ابن كثير

(الجلال المحقق احمد بن عبدالله بن الحسين الدمشقي) اشتغل على مذهب الشافعي وبرع فيه وافني واعاد وكان فاضلاً في الطب وقد ولي مشيخة الدخوازية (مدرسة طبية) لتقدمه في صناعة الطب على غيره وعاد المرضى بالبيمارستان النوري على قاعدة الاطباء وكان مدرساً بالشافعية بالمدرسة الفروخشاهية وبعيداً بعدة مدارس الى آخر ما قال

هذا يدلكم على ان العلوم كانت مشاعة بين العلماء وان العالم بالشرع قد يكون عالماً بعلوم أخرى من العلوم النظرية والعملية كالفلسفة والطب والموسيقى والفلك والرياضيات وغيرها من العلوم التي قامت على دعائمتها المدنية الاسلامية وكانت الحلقة الوسطى بين المدنية القديمة والمدنية الحديثة حتى اعترف بفضلها على التمدن الغربي كثير من علماء التاريخ والاجتماع في اوروبا كدروني ومونتسكيو وكوستافلوبون وافردوا للمدنية الاسلامية كتباً خاصة اتوا فيها على ذكر ما تركته هذه الحضارة من آثار الترقى والعالم التي يجعلها اهل هذا العهد باللاسف والعار

نحن الآن ايها السادة بصدد علماء دمشق في القرون الوسطى وانما هم حلقة من سلسلة تلك المدنية الاسلامية التي اخنى عليها الزمان واذا سمحتم لي فاني اختم كلامي بنبذة من تاريخ تلك السلسلة بعد استيفاء الكلام على كتاب الدارس هذا ان شاء الله

علمنا مما سبق عدد المدارس ودور الهجرة التي انشئت في مشق ولكن من الذي انشأ هذه المدارس ورفع بنيانها وادر الخيرات عليها وانفق من ماله على طلابها هي الحكومة او الافراد او الجماعات ؟

بلغ بنا الضعف ان صرنا كالاطفال نطلب كل شيء من الحكومة كما يطلب الطفل كل شيء من والديه اما اسلافنا فلم يكونوا كذلك بل كانوا استقلاليين اكثر منهم انكاليين يعرفون قيمة الاعتماد على النفس فكان الفرد الواحد يقوم بما تقوم به الجماعة او يطلب من الحكومة اليوم

ولهذا فان كل ما جاء ذكره في هذا الكتاب من المساجد والتكايا والمدارس انما انشأه الافراد وقام بمال اهل السخاء والجود من اسلافكم الطيبين لمحض الخير وارادة نشر العلم وخدمة الوطن والدين

لم يختص بهذا العمل الجليل والشرف الرفيع الملوك والامراء وذوو السلطة كما قد يتوهم بعضهم كلا بل كان الافراد من كل الطبقات من اهل اليسار يتسابقون الى اقامة المعاهد العلمية حسبة لله وحباً بعمل الخير واستبقاء للذكر الصالح في الوجود

فالتجار والعلماء والسيدات هم الذين اسسوا هذه المدارس كل مدرسة يؤسسها شخص بمفرده ويحبس عليها من ملكه ما يكفي ريعه لبقائها بل اقول لكم والحجل يكاد يمتعني من التكلم والحزن يوشك ان يعقد لساني ان العبدان — عبدان اسلافكم ايها السادة — شيدوا باموالهم بعض هذه المدارس ورفعوا منار العلم فيها للفضيلة كم ترفع العبدان الى منزلة السادة في حين تخط السادة الى منزلة العبدان

ان العبدان كانوا ارفع نفوساً واحسن كفوفاً منا الآن بالغجل والخمران ان الكلام وحده لا يغني عن البرهان وانكم تنتظرون مني الدليل بعد هذا البيان واليك امثلة من عمل العلماء • والتجار • والسيدات • والعبدان

قال المؤرخ في فصل عقده لمدارس الطب

(المدرسة الطبية الدخاوية «الدخاوية») المدرسة الدخاوية بالصاغة العتيقة بقرب الخضراء قبلي الجامع الأموي انشأها مذهب الدين عبد المنعم بن علي بن حامد المعروف بالدخاوي في سنة احدى وعشرين وستمائة بالصاغة العتيقة كما تقدم واول من درس فيها واقفها ثم من بعده بدر الدين محمد بن قاضي بعلبك ثم عماد الدين الدينسري وهو بها الى الآن

(المدرسة الدنيسرية) غربي البجارسنن النوري والصلاحية بآخر الطريق من قبلة قال الذهبي في العبر في اخبار سنة ست وثمانين وستائة

« عماد الدين ابو عبدالله محمد بن عباس الربيعي » الرئيس الطيب ولد بدنيسر سنة ست وسمع بمصر من علي بن مختار وجماعة وثقة له للشافعي وصحب البهاء الزهير وتأدب به وصنف الى ان قال نقلا عن الاسدي : العماد محمد بن عباس الحكيم البارع في الطب صاحب المدرسة للاطباء بالقرب من بيارستان نور الدين الشهيد الخ .

(المدرسة البودية) البودية النجمية مدرسة خارج البلد ملاصقة لبستان الفلك المشيري انشأها نجم الدين يحيى بن محمد بن اللبودي في سنة اربع وستين وستائة : الى ان قال نقلا عن ابن ابي أصيبعة . كان علامة وقته وافضل اهل زمانه في العلوم الحكيمة الخ

هذه امثلة من عمل العلماء : واسمعوا مثالا من عمل التجار في سبيل الخير والعلم والمنفعة العامة لم يعمل مثله احد من اغنياء هذا الزمان

(المدرسة المزلقية) بطريق مقابر باب الصغير الآخذ الى الصابونية انشأها تاجر الخالص الشريف شمس الدين ابو عبدالله محمد بن علي بن ابي بكر المعروف بابن المزلق ميلاده سنة اربع وخمسين وسبعائة وكان ابيه لباتنا ادركه جماعة وهو يبائر ملبنة عند جامع بلبغا قنشا ولده هذا ودخل في البحر وحكى عن نفسه ان اول سفره سافرهما كسب فيها مائة الف دينار وثم ثمانية الف درهم وانفتحت عليه الدنيا وعمر املاكا كثيرة وانشا على درب الشام الى مصر خانات عظيمة بالقيبطرة وجسر يعقوب والمنية وعيون التجار اتفق على عمارها ما يزيد على مائة الف دينار وكل هذه الخانات فيها الماء وجاءت في غاية الحسن ولم يسبقه احد من الملوك والخلفاء الى مثل ذلك وهو صاحب المآثر الحسنة بدرب الحجاز ووقف على سكان الحرمين الشريفين الاوقاف الكثيرة الحسنة وعين للحجرة الشريفة على الحال بها افضل الصلاة واتم السلام الشمع والزيت في كل عام الى آخر ما قال

وهذا مثال لتاجر غيره ايضا : (المدرسة الرواحية) شرقي مسجد ابن عروة بالجامع الاموي ولصيقه شمالي جيرون وغربي الدويلة وقبلتي السيفية الحنبلية : قال ابن شداد بانها زكي الدين ابو القاسم التاجر المعروف بابن رواحة وقال الذهبي في تاريخه العبري

من مات سنة اثنتين وعشرين وستائة والركي بن رواحة هبة الله بن محمد الانصاري
التاجر المعدل واقف المدرسة الرواحية بدمشق واخرى بحلب الخ
ومن امثلة عمل النساء : (المدرسة العالمية) العالمية شرقي الرباط الناصري غربي
سفيح فاسيون تحت جامع الافرم واقفتها الشيخة الصالحة العالمة اللطيفة بنت الشيخ الناصح
الحنبلي المتقدم ذكره في المدرسة التي قبل هذه (وهي المدرسة الشنيعة بانها الشيخ ابو
عمر الكبير) وكانت فاضلة لها تصانيف وهي التي ارشدت ربيعة خاتون بنت نجم الدين
ايوب اخت الملك صلاح الدين الى وقف المدرسة صاحبية بقاسيون على
الخطابة الخ

ومن امثلة عمل العبدان والطواشية (المدرسة الصارمية) الصارمية داخل بابي النصر
والجالية قبلي العذراوية بشرق قال القاضي عز الدين بانها صارم الدين ازبك مملوك
قايمآز النجبي ورأيت مرسوما بعثتها ما صورته

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا المكان المبارك انشاء الطواشي الاجل صارم الدين جوهر بن عبدالله الحر
عتيق الست الكبيرة الجليلة عصمة الدين عذرى ابنة شاهنشاه رحمها الله تعالى الخ
ارأيتم ايها السادة بماذا قامت هذه المدارس وبين وكيف ان الافراد من اسلافكم كانوا
يعملون مالا يعمل الجماعات منكم اليوم

ان الافراد هم الذين ينهضون بالام وان المدنية الاسلامية التي نلت عليكم حلقة
من سلسلتها العظيمة كان للافراد شأن عظيم في وضع دعائمها وتشييد بنيانها
تعملون ايها السادة ما كان لترجمة كتب اهل التمدن القديم كاليونان والفرس الى
العربية من الاثر الكبير في تأسيس المدنية الاسلامية في بغداد على عهد الخلفاء
العباسيين وقد يتوهم بعضهم ان الذي عني بترجمة هذه الكتب انما هم الخلفاء وحدهم
واخصهم امير المؤمنين المأمون والحال ان لكثير من الافراد ورجال الفضل والتبيل
من الامة يدا لاتنكر في هذا السبيل .

وهذا يدلكم على ان عمل الاشخاص منفردين لا يقل تأثيراً في الهيئة الاجتماعية عن
عملهم مجتمعين

ولذا فلا ابالغ اذا قلت ان نوابغ الامة الذين خدموا بذكائهم وعلمهم المدنية وشيدوا

أركانها الرفيعة انما قاموا بهذه الخدمة وقامت تلك المدنية بفضل اهل السخاء والجود من محبي العلم والتلقي وانصار النجاح الذين كانوا ينفقون من مالهم على المترجمين للكتب العلمية الى اللغة العربية

ومن هؤلاء الافاضل الاجواد الذين رصدوا جزءا كبيرا من اموالهم على المترجمين لكتب العلم في تلك العصور : علي بن عيسى العباسي : ومحمد بن موسى بن شاكر الرياضي الشهير : وعلي بن يحيى الكاتب : وابن المدير الكاتب : وثاوري الاسقف : ومحمد بن عبد الملك الزيات الوزير : وبختيشوع الطيب : وبوحنا بن ماسويه الطبيب : والعديد الكثير من امثالهم المولعين بالتلقي والعلم الذين كان ينفق كل واحد منهم اموالا طائلة على نقله العلوم الى اللغة العربية حتى لقد نقل ابن ابي أصيبعة عن محمد بن عبد الملك الزيات انه كان ينفق في الشهر الواحد على المترجمين الف دينار . قال هذا فضلا عما كان ينفقه الخلفاء من بني العباس لهذا القصد

انا والله نتمنى ان تجمع هذه الالف دينار في كل شهر من الف غني من اغنيائنا اليوم لتنفق في سبيل نشر العلم وتربية الناشئة من ابناء الاوطان ولو فعلوا ذلك اليوم لعوضوا ابتائهم اضعافا مضاعفة في الغد . بل لو فعل ذلك اهل كل ولاية عثمانية لاصبحت المملكة العثمانية بعد عشرين سنة جنة قطوفها العلم وسياجها القوة والحياة . ولنعد الى ما كنا بصدده فنقول :

يمثل هذا البذل على نقل كتب العلم ونشرها بين الكافة والاستفادة منها ظهر اركان النهضة في الشرق الذين ارتفع بهم شأن التقدم الاسلامي وذلك مثل بني موسى بن شاكر المهندسين الرياضيين في عصرهم وبني بختيشوع وبني سهل وبني ماسويه وبني حنين وبني ثابت بن قرة وبني زهرون وابي عثمان الدمشقي وابن كرنيب وبني بن عدي المنطقي وابي الفرج الطيب وابي الريحان البيروني والشيخ الرئيس ابن سينا وابي نصر الفارابي والفخر الرازي وابن الشاطر واضرابهم من العلماء الذين ظهروا في الشرق في عصور متفاوتة ابان الحضارة الاسلامية

ومثل بني زهر وبني بن السمينه وابي القاسم المرحلي امام الرياضيين والفلكيين في عصره وابن السمع الغرناطي المهندس وسعيد بن عبد ربه وابي جعفر البرحالي وابي الوليد ابن رشد وابنيه محمد واضرابهم ممن ظهروا كذلك في الغرب

ومثل ابن الهيثم البصري صاحب التآليف الغزيرة في الرياضيات والفلك والمبشر ابن فائق وعلي بن رضوان وتلميذه افرائيم بن الزفان والشيخ السديد رئيس الاطباء وشمس الرياسة بن جميع الاسرائيلي ورشيد الدين ابي حليقة وامثالهم ممن ظهروا في مصر كل هو لاء من علماء الفلسفة والطب والرياضيات والحكمة الطبيعية وغيرها من العلوم ونسبتهم كنسبة واحد في المائة ممن ظهروا في عصرهم وبعده في الشام وبغداد ومصر وفارس والمغرب والروم اي آسيا الصغرى وغيرها من الامصار ونهضوا بالامة واعلوا ذكر المدنية الاسلامية في الشرق والغرب وانما وضع لهم الاساس افراد من الامة قدروا قدر العلم فشيّدوا معاهدته وترجموا كتبه واكرموا اهله فتكون من عمل اولئك وهو لاء وتعاونهم جيلا بعد جيل بناء تلك المدنية العظيمة التي فقدناها بهدؤ ولم نستطع اللحاق بابناء التمدن الحديث لاعراضنا عن العلم وغفلتنا عن تحدي الامم الراقية وقبض اكفنا عن امداد معاهد العلوم وانشاء دورها مع اننا قد يطلب منا الآن ونحن جماعات فلا نجيب ما كان يعمل به الافراد من اسلافنا من تلقاء انفسهم وبمحض رغبتهم بالعلم والمعارف وحبهم للارتقاء فما هذا الفرق العظيم .

وبالجملة ايها السادة انا ممة ذات ماض مجيد وتاريخ جميل وقد ترك لنا اسلافنا درساً لا يمحوه الزمان ونقش في كل زاوية من المشرق ومكان فلن يبلغ بنا ضعف النظر اضعف القلوب والهيم او فساد الاخلاق واستحالة الدم الى ان تناساه ولا تقرأ صحفه الزاهية التي يدعوننا كل سطر منها الى التذكر والتفكير والسعي الحثيث الى الترقى الذي مناهه العلم والعلم يحتاج الى المال . فلما لا المال الكرم الكرم الانتباه الانتباه والا قضي علينا بالدمار ولحق بنا العار وتبرأ منا اسلافنا الظاهرون ولا يكون ذلك ان شاء الله مادام فينا الكرام الغيورون والرجال المفكرون والسلام عليكم



اغنياؤنا

قال لنا منذ مدة احد اعيان دمشق اني اضطرت لفاتكة اصابتني ان ابيع عقاري من عقاري افتدري من كان يزيد فيهما ؟ قلنا لا ندري . قال كان يزيد فيهما اناس لا يتصور العقل ان عندهم قوت شهر واحد اناس يلبسون خلق الثياب ولا تعدم من كبار السوقة بل من صغار المرتزقة اما من كانت بظن انهم سيتلقفون ذبك العقارين فلم